



## لبنان في السياسة الفرنسية (١٩٢٠ - ١٩٩٣)

ثمة مواضيع في السياسة لا يمكن التطرق اليها من دون الرجوع الى التاريخ. العلاقة بين لبنان وفرنسا هي من هذا النوع، وبامتياز. ليس فقط لأن فرنسا كانت الطرف المسؤول عن قيام الكيان اللبناني، ولا لأن الميثاق الوطني قام تحديداً، في احدى دعامتيه، على تخلي جزء من اللبنانيين عن وصايتها، بل لأن تلك العلاقة بقيت، في تبريراتها الفكرية والدعوية، خاضعة لقراءات مغلوبة ومجزأة افضت دوما الى حجب الآليات الفعلية التي كانت تحركها.

ما يلفت اولاً في القراءة الاكثر شيوعاً للعلاقة الفرنسية - اللبنانية في لبنان، انها تنحصر على المستوى الثنائي، غافلة ما يدور حول الطرفين المعنيين. بل انها، كانت، في احيان عدة، تغفل ما يدور لدى احد الطرفين، واعني فرنسا، فتستند فقط الى مركزية لبنانية حادة لم تكن، بدورها، الا غلافاً لمركزية مارونية لا تقل عنها حدة. وقد ادت هاتان النزعتان المتكاملتان الى تقديم العلاقة الفرنسية - اللبنانية باعتبارها من ثوابت التاريخ، لا تضاهيها في الثبات سوى الامة اللبنانية السرمدية. لا عجب في ذلك، فالارتباط بفرنسا شكل احدى المقولات المؤسسة للقومية الجبلية اللبنانية. وقد صيغت في هذا السياق مجموعة من المعتقدات الجماعية، حتى لا نقول الاساطير، التي كان بعضها تحويراً لحقائق تاريخية في ما كان البعض الآخر محض اختراع، كالرسالة المنسوبة الى الملك لويس التاسع. وقد يكون من المفيد التذكير ان شيئاً من الطقوس التي رافقت عملية بناء القومية اللبنانية حول فكرة العلاقة المميزة بفرنسا، بقي الى اليوم. واسطع مثال على ذلك هو "القداس من اجل فرنسا" الذي تقيمه ابرشية بيروت المارونية كل سنة في عيد السيدة العذراء في ١٥ آب ويحضره بانتظام سفير الجمهورية التي جعلت من العلمانية عقيدتها الاولى.

والاهم من ذلك ان تلك النظرة المبتورة والمستندة فقط الى المركزية اللبنانية، لا تقيم كبير حساب للمفاهيم الفرنسية التي كانت تحكم النظرة الى جبل لبنان ثم الى لبنان الكبير. اذ انها تسقط عاملين اساسيين كانا دوماً اكثر تأثيراً.

اولاً - وضعية الطرف الفرنسي: اي طبيعة النظام الحاكم في فرنسا وهويته، والايديولوجيا التي يتأثر بها، ومركزه على الساحة العالمية.

ثانياً - توجهات السياسة المتبعة في المنطقة التي يقع فيها لبنان واهدافها، مع العلم ان تحديد تلك المنطقة تغير مراراً في الحسابات الفرنسية (بلاد الشام، المشرق، الشرق الاوسط، حوض المتوسط، العالم العربي برمته...).

يسمح التغافل عن هذين العاملين بافتراض وجود التزام لبنانوي دائم من طرف فرنسا، يكمل التزامها حيال الموارد. بالطبع، تشكل الحماية الفرنسية للموارد معطى تاريخياً لا يمكن انكاره، وان كان



يجدر بنا وضعه في اطاره الصحيح، اي الاطار العام للسياسة الفرنسية بازاء السلطنة العثمانية. في المقابل، هناك عدد من الدلائل تشير بما لا يحمل الشك الى:

اولاً – ان الخيار "اللبناني" الذي اقرّ في العالم ١٩٢٠ لم يكن محتماً من وجهة النظر الفرنسية.

ثانياً – ان اعلان لبنان الكبير لم يكن تتويجا لمشروع مضطرد تمت برمجته في شكل واع قبل عقود من تحقيقه.

تكفي الاشارة هنا الى السياسة الفرنسية حيال محمد علي وابراهيم باشا، او الى النزعات الآيلة الى تشكيل مملكة عربية في المشرق، وهي نزعات تميز بها غيزو ثم نابليون الثالث، من خلال الامير عبد القادر الجزائري. كما تجدر الاشارة الى ان حماية المسيحيين ضمن السلطنة العثمانية لم تكن تقتصر على الموارد في جبل لبنان، وان المسعى الى فرض الحماية الفرنسية على الاراضي المقدسة (خصوصا في وجه الروس) كان في مثل اهميتها. ثم ان حماية المسيحيين نفسها لم تكن المدخل الوحيد للسياسة الفرنسية في المنطقة. نظرا الى انخراط الاوساط المالية والتجارية الفرنسية، خصوصا تلك المتمركزة في ليون ومرسيليا، في الاقتصاد العثماني، اكان ذلك في الأستانة ام في بلاد الشام.

اما اذا نظرنا الى الامر من زاوية المشاريع الاستعمارية التي كانت تهيم على حل المسألة الشرقية وتجزئة الديار العثمانية، فيجدر التذكير ان ما كانت تطمح به فرنسا هو كامل بلاد الشام (من جبال طوروس الى سيناء بحسب التعريف المشهور)، تلك المنطقة التي كانت تسمى في باريس "آسيا الفرنسية" او، بتعبير اكثر دلالة، "سوريا الفرنسية". ومن هذا المنظار، كانت فرنسا تستند بالتأكيد، وفي وجه المنافسة البريطانية، الى ارتباطها الخاص بالموارد لكنها كانت تستند ايضا، وفي الدرجة نفسها، الى ادعاء حماية الاراضي المقدسة في فلسطين. في اي حال، لا يوجد اثر، في كل ما كان يحاك، لشيء اسمه دولة لبنان الكبير. والمعروف ايضا ان اتفاق سايكس – بيكو لم يلحظ صراحة قيام كيان لبناني موسع.

اما لماذا استقر الرأي الفرنسي على انشاء لبنان الكبير، فهذا يعود الى تضافر آني لعاملين اساسيين:

العامل الاول هو الوضعية الدفاعية التي وجدت فرنسا نفسها فيها بعد اتفاق سايكس – بيكو، الذي شكل في الاصل تراجعاً عن الاتفاق الفرنسي – البريطاني المعقود عام ١٩١٢ (مراسلات غراي كاميون)، والتي تفاقمت بعد ان تجاوز البريطانيون ذلك الاتفاق، هذا في الوقت الذي بدت فيه الحركة العربية في حال صعود مضطرد بعد دخول فيصل الى دمشق. من هنا كان قرار تجزئة بلاد الشام.

اما العامل الثاني فهو التحرك الناشط في باريس وفرساي للمناضلين "اللبنانيين"، وهو تحرك ناتج بالطبع عن بلورة وعي وطني في مجتمع جبل لبنان الماروني. الا ان اهمية هذا التحرك كانت تتأتى اساسا من كون دعاة الوطنية اللبنانية المجموعة الوحيدة التي ترفع مطالب لا تهدد المطامع الفرنسية بل تعززها.



يبقى ان العامل الاساسي كان العامل الاول. فعندما اضطر فيصل الى القبول بمبدأ الوصاية الفرنسية، شرط ان تكون سوريا موحدة، جوبه بالرفض. وتمّ تنفيذ قرار التجزئة ليس فقط بتوسيع حدود جبل لبنان، بل باستنباط دويلات اخرى.

مع عهد الانتداب، تغير اطار السياسة الفرنسية بالطبع. لا يعني ذلك ان المركزية اللبنانية تشكل معياراً صحيحاً لقراءة هذه المرحلة. فالاهم في النظرة الاستعمارية الفرنسية بقي مصير سوريا، مع الملاحظة ان ما يحدد هذا الاهتمام لم يعد الدافع الاقتصادي. فسوريا ولبنان كلفا فرنسا اكثر مما جنته منهما. الدافع الاول كان استراتيجياً: اي وضعية فرنسا كقوة اسلامية، كما كانت تسمى، وبتحديد ادقّ ديمومة امبراطوريتها في المغرب العربي، اذ ان دوائر القرار الفرنسية كانت تعتقد، وعن حق، ان مصير وجودها في سوريا، يؤثر سلباً وايجاباً على وضعها في المغرب. في هذا الاطار وحده تفهم السياسة الفرنسية حيال سوريا، اي كونها تقيم نظام حماية يتجاوز الحدود القانونية لمفهوم الانتداب، ويرفض افق الاستقلال حتى لا يعطي "المثل السيء" للنضال الوطني في المغرب، من دون ان تستطيع اللجوء الى تصعيد القمع خشية ردود الفعل هناك. هكذا انتهت فرنسا الى قبول زوال الدويلات الصغيرة، باستثناء لبنان بالطبع. فلبنان كان أضحى انجازاً فرنسياً متميزاً عن غيره لجهة كونه مقبولاً من نصف سكانه على الاقل، خلافاً للدويلات الاخرى. وبهذا المعنى، بات لبنان علامة من علامات الهيمنة الفرنسية، وحاجزاً يمكن الدفاع عنه، وبرضى جزء من اهله، في وجه المشروع الاتصالي الذي كان يعني في نهاية المطاف زوال السيطرة الفرنسية. من هنا اصرار الفرنسيين في مفاوضاتهم مع الكتلة الوطنية عام ١٩٣٦ على الحصول على اعتراف بالكيان اللبناني وحدوده.

المعروف ان معاهدة ١٩٣٦ بقيت حبراً على ورق، اذ لم يقرها البرلمان الفرنسي، وظلت الاطر نفسها تتحكم بالنظرة الى لبنان وسوريا الى ان جاءت الحرب فحصل التغيير لا في النظرة الفرنسية، وانما في وضعية فرنسا كقوة عظمى، ناهيك بالتغيير داخل لبنان نفسه الذي أفضى الى عقد الميثاق الوطني فالاستقلال.

## عهد الاستقلال

ثمة مفارقة في العلاقة اللبنانية – الفرنسية منذ الاستقلال. ففيما تعتبر هذه العلاقة من المسلمات، لا يشعر المؤرخ، عندما ينظر الى العقود الخمسة المنصرمة، انها كانت في الواقع دائمة التأثير، باستثناء الجانب الثقافي بالطبع. ففي المجال السياسي، فاقتها اهمية في حقبات متعددة العلاقة مع القوى الانغلو سكسونية، بريطانيا اولاً ثم الولايات المتحدة.

من النافل القول مثلاً ان العلاقة الفرنسية – اللبنانية انتكست في لحظة الاستقلال، الذي شكل احدى المحطات البارزة في هذا المسلسل المعروف تاريخياً بعنوان "اخراج فرنسا من المشرق"، والذي توج بجلاء القوات الفرنسية عن سوريا ثم عن لبنان. ولم تكن الانتكاسة انية، فقد استمرت حتى اوائل الستينات. ففي سوريا، سرعان ما خابت الآمال التي علقها الفرنسيون على حسني الزعيم ثم على اديب الشيشكلي. اما في لبنان فكانت بريطانيا ترعى حكم الشيخ بشارة الخوري قبل ان تتخلى عنه في خضم معركتها من اجل فرض نظام امني في الشرق الاوسط يناسب ارادتها في البقاء سيدة اللعبة. وفي هذا المنظار رعت حكم كميل شمعون الذي شهد انضواء لبنان في سياسة الاحلاف. في المقابل، اخذت فرنسا المبعدة عن سياسة الاحلاف والقلقة من صعود الناصرية، لاسيما في ظل ازمة



امبراطوريتها الاستعمارية في المغرب العربي، اخذت تحصر اهتمامها باسرائيل وصولا الى قيام تحالف كامل، وان يكن غير معلن، بين الدولتين. وقد ذهبت فرنسا بعيدا في هذا التحالف حتى انها اهملت كليا الآمال التي كانت تراودها قبل سنوات بالعودة سياسيا الى سوريا ولبنان.

اكثر من ذلك، يلاحظ المؤرخ ان المسؤولين الفرنسيين لم يعودوا، في حماسهم لاسرائيل، يقيمون اي حساب للكيان اللبناني. هكذا، نرى ان غي موليه رئيس الوزراء وكريستيان بينو وزير الخارجية لم ينسا ببنت شفة عندما اقترح بن غوريون، في اجتماع سيفر السري الذي تم فيه التوافق على خطة العدوان الثلاثي، اعادة تقسيم الشرق الاوسط، لاسيما تفكيك لبنان الكبير معتبرا اياه خطأ تاريخيا، واعادة الجبل المسيحي الى حجمه السابق (لم يكن البريطانيون قد وصلوا بعد).

لم يقابل لبنان، او اقله لبنان الرسمي، عدم الوفاء الفرنسي بالمثل. فكان البلد العربي الوحيد الذي لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا. كما انه من غير الخفي، من جهة اخرى، ان قسما من اللبنانيين كان يشاطر منظمي العدوان الثلاثي رغبتهم في اطاحة الرئيس عبد الناصر، غير عابئين بما تعنيه الافضلية المعطاة فرنسيا الى اسرائيل.

يبقى انه، على رغم استمرار العلاقات الدبلوماسية، ظلت فرنسا بعيدة بعض الشيء عن لبنان في السنوات التالية. هكذا لم تلعب دورا يذكر خلال احداث ١٩٥٨. صحيح ان الجنرال ديغول ايد التدخل الاميركي في لبنان. لكن ذلك حصل بعد اقل من شهرين من عودته الى السلطة. لذلك لا يمكن تحميل هذا الموقف معان كثيرة. فالمعروف لدى كل الذين درسوا التاريخ الفرنسي، ان الفترة الممتدة بين ١٩٥٨ و ١٩٦٢ شبه ضائعة، بمعنى ان استمرار الحرب في الجزائر كان يحول دون استعادة السياسة الخارجية الفرنسية كامل فاعليتها، وان ما يسمى بالاختلاف الفرنسي لم يبرز الا بعد توقيع اتفاق ايفيان القاضي باستقلال الجزائر.

هكذا، جاءت استعادة الدبلوماسية الفرنسية كامل حضورها في لبنان على اساس حركية جديدة تجلت في العلاقات الفرنسية - العربية عموما، مع بدء تبلور ما سمي لاحقا "السياسة العربية". واللافت ان الحضور الفرنسي في لبنان تحول، في هذا الاطار، نوعا من الرعاية الغربية للسياسة العربية التي انتهجها الرئيس شهاب. بتعبير آخر، شكل الوفاق بين مصر الناصرية وفرنسا الديغولية مظلة لاستعادة العلاقات الفرنسية اللبنانية المميزة. وكان ابلغ دليل على ذلك زيارة الرئيس حلو الى باريس التي وصلها آتيا من مصر، في ايار ١٩٦٥.

وفي هذا الاطار ايضا يفهم الموقف الفرنسي من التهديدات الاسرائيلية في قضية روافد نهر الاردن، كما يفهم رد فعل ديغول القاسي على الهجوم الاسرائيلي ضد مطار بيروت.

**سمير قصير**



<b>Id-Reference</b>	<b>93-Pr-000087</b>	
<b>Media</b>	<b>(Support)</b>	HC
<b>Title</b>		حلقة اولى لبنان في السياسة الفرنسية ١٩٢٠ - ١٩٩٣
<b>Subtitle</b>		عهد الاستقلال
<b>Section</b>		N.B مداخلة القيت في المؤتمر الذي دعا اليه النادي الثقافي العربي حول الكيان اللبناني بين ٢١ و٢٦ حزيران الماضي في فندق الكارلتون.
<b>Language</b>		عربي
<b>Source</b>		النهار
<b>Page</b>		١١
<b>Date</b>		١٩٩٣/٧/٢٣ 23/07/1993
<b>Author</b>		سمير قصير
<b>Co-Author</b>		
<b>Keywords</b>		
	<b>Persons</b>	بشارة.خوري - كميل.شمعون - كريستيان.بينو - شارل.ديغول - فؤاد.شهاب
	<b>Locations</b>	لبنان - فرنسا
	<b>Dates</b>	١٩٢٠، ١٩١٢، ١٩٣٦، أحداث ١٩٥٨، ١٩٦٢
	<b>Themes</b>	لبنان - فرنسا - علاقة - سياسة - تاريخ - لبنان.كبير - استعمار - استقلال - موارد - مسيحيين - سايكس.بيكو - سلطنة.عثمانية - سوريا - عهد.استقلال - عرب - اسرائيل
<b>Subject</b>		القسم الاول من المداخلة التي القاها سميير قصير في المؤتمر الذي دعا اليه النادي الثقافي العربي حول الكيان اللبناني وتناول فيها مسيرة العلاقة الفرنسية - اللبنانية بكل تعرجاتها بدءاً بجبل لبنان وإعلان دولة لبنان الكبير مروراً بعهد الاستقلال وتأثرها بالأزمات العربية التي تسببت فيها اعلان دولة اسرائيل وصولاً الى إستعادة الدبلوماسية الفرنسية كاملة حضورها نتيجة الوفاق بين مصر الناصرية وفرنسا الديغولية. تابع